تفسير كتاب مقدّس

رسالة القدّيس يعقوب الرسول (إصحاح 2 -3)

مع الأب ابراهيم سعد

في كنيسة القدّيس جاورجيوس – المنصورة

2014/11/8

نتكلّم اليوم، على التّحدي الكبير الذي نعيشه في هذا العالم، ألا وهو الإيمان والحياة والسُّلوك، الإيمان بالأعمال، لأنّنا نقع أحيانًا كثيرة في مشكلةٍ كبيرةٍ في حياتنا، عندما يبدأ الإنسان بالتكلّم على إيمانه والدّفاع عنه، أو حتّى المحاربة من أجله، لكنّنا لا نرى إيمانه في أعماله، فيكون ايمانه بالكلام فقط. لذلك، قد يكون المسيحيّون أكبر مَعثرة للمسيح بسبب سلوكهم في حياتهم أحيانًا، وأحيانًا أخرى أو بسبب كلامهم. لذلك، سأستفيد من رسالة يعقوب الرسول للتّكلم على ثلاث نقاط في موضوع الإيمان.

أوّلاً: الإيمان والرّحمة؛ ثانيًا: الإيمان والسّلوك والحياة؛ وثالثًا: الإيمان في الكلام واللّسان. فالإنسان يُعرَف من خلال هذه النّقاط الثّلاث: طريقة تعاملنا مع الآخرين، كيفيّة سلوكنا وصدقنا في الحياة، وكيفية التّكلّم. فإذا كنّا غير واثقين من هذه الأمور الثّلاثة، سيطرح كلُّ مَن يسمعُنا ويرانا علامةَ استفهامٍ حول إلهِنا، وليس حول إيماننا. لأنّنا، من حيث لا ندري، نجدّف على الله بسبب سلوكنا أو حياتنا أو كلامنا. وهذه مسؤوليّة كبيرة على كُلّ مُعَمَّد. فعلى كُلّ من وُلد ثانيةً من جرن المعموديّة، أن يُظهر المسيح، "الذي جعل نفسَه في ورطةٍ كبيرة" حين سَلّمَ نفسَه إلينا، لكي نوصِله إلى النّاس، على ما يبدو أنّ الرّبّ قد رأى أنّ الأمر الأساسيّ، هو أن يوصِلَ المسيحَ إلى كلّ إنسانٍ على الأرض، مهما كان دينُه أو وطنُه، بسبب حبِّه له، ولكونه يعرف أين يكمُن خَلاصه. لذلك ارتضى أن يُحْمَل بواسطة أشخاص ذوي طينةٍ ضعيفة.

ينبّهنا يعقوب الرّسول، نحن المؤمنين بالرّبّ يسوع، الى بعض النّقاط، فيقول: "**يا إخوتي لا يكون لكم إيمانُ الرّبّ يسوع المسيح ربّ المجد بالمُحاباة** (يع 2:1)، والمحاباة تعني أن نكون ذوي وجهَين، وهي لا تصدر عن إيمانٍ صحيح، إنما تعكس صورة إيمانٍ مشوَّش، لذلك أعطانا مثالاً قويًّا إلى حدّ أنّه يجعل كلَّ شخصٍ منّا تحت مسؤوليّة، فيقول: "**فإنّه إنْ دخل إلى اجتماعكم رجلٌ بخواتمَ من ذهب، في لباسٍ بهيّ، ودخلَ أيضًا فقيرٌ بلباسٍ وسخ، فنظرتم إلى اللّابس اللّباس البهيّ، وقلتم: اجلسْ أنتَ ههنا، وقلتم للفقير: قِفْ أنت هناك، أو اجلس هنا تحت موطئ قدمي، فهل تَرتَابون في أنفسكم، وتَصيرون قُضاة أفكارٍ شريرة**"(يع 2: 2-4). المحاباة هي التَّمييز؛ والله لا يُحابي الوجوه.

قديمًا، كان رئيسُ القبيلة أو الملك هو القاضي في الوقت نفسه. فعندما يأتيه رجلٌ ليحكم عليه بالعدل، يدخل الرّجل منحني الرّأس لكي لا يرى القاضي وجهَه، فإذا رآه سيؤثّر ذلك في حكمه؛ واللّه لا يحابي الوجوه. من هنا جاءت كلمة "المحاباة". فيقول الرسولُ إنّكم تقعون في هذا الفخّ. ويقول: "**اسمعوا يا إخوتي الأحبّاء، أما اختار اللهُ فقراءَ هذا العالم أغنياء في الإيمان؟**"(يع2: 5)، فالإثنا عشر رسولاً الّذين أوصَلوا الإنجيل، أتى بهم من الفقراء. "**أما أنتم فأهنتم الفقير. أليس الأغنياء يتسلطون عليكم وهم يجرّونك الى المحاكم؟** (يع2: 6)؛ إذاً أنتم واقعون في ورطة، فإذا كان لديكم الإيمان لا تُميِّزون. ليس علينا أن نحتقر الغنيّ إنّما أن نحبّ الفقير ونحترمه كما نحترم الغنيّ. فيعقوب الرّسول نَبّه المسيحيّين، في الكنيسة الأولى، على هذا الموضوع، حيث يقول: "**لأنّ الحكم هو بلا رحمة لمن لم يعمل رحمة**"(يع 2: 13)؛ يستطيع اللهُ إذًا أن يرحمك وأنتَ في خطاياك، سواء استطعتَ أن تُصلّي أو لم تستطع، سواء صِمْت أو لم تصمْ؛ فسواء قمتَ بزلّة لسان أو ارتكبتَ خطيئة، فسيرحمك، ولكن إن كنتَ من دون رحمة مع أخيك الإنسان، فعندها لن يرحمك اللّه "**والرّحمة تفتخر على الحكم**" (يع 13:2)، أي أنّ القانون والعدل مهمّان، لكنّ الرّحمة أهمّ منهما. لذلك قبل أن تخلدوا إلى النّوم يجب أن تُضيفوا إلى صلواتكم عبارة "يا ربّ عاملني بحسب رحمتك، لا بحسب عدلك". فإذا عامَلَنا اللهُ بحسب عدله، فلن نستحقّ النّهوض في اليوم التّالي، لأن الرّب قال، إنّ الرّحمة تتغلّب على القانون والحكم). فهذه صورة من الصّور الّتي تكلّم عليها يعقوب الرّسول.

أمّا الصّورة الثّانية فهي: "**ما المنفعة، يا إخوتي، إن قال أحدٌ إنّ له إيمانًا ولكن ليس له أعمال، هل يقدر الإيمان أن يُخلّصه؟**" (يع2: 14)؛ إن كان أخٌ أو أختٌ عريانَيْن ومُحتاجَيْن للأكل اليومي، أتقول لهما امضيا بسلام واشبعا واستدفئا، أو تُطعمهما؟ إذا كان لديك الإيمان كيف تُظهره للنّاس؟ ليس فقط بالكلمة، وإنّما بالسّلوك والتّصرّف. فإذا جاءك شخصٌ عارٍ وجائع، لا تستطيع أن تكلّمه عن ملكوت السّموات، عليك أن تُطعمَهُ وتُدفئَه ثمّ تخبره عمّن دَفعكَ لإطعامه وتدفئته. يقول الرسول: "**ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد، فما المنفعة؟ هكذا الايمان أيضًا إن لم يكن له أعمال ميّت في ذاته، لكن يقول قائل أنت لك إيمان وأنا لي أعمال، أرني إيمانك بدون أعمالك، وأنا أريك بأعمالي إيماني** (يع2: 16-18). إذًا ما المنفعة إذا ردّدنا دومًا "أنا مؤمن بالمسيح"؟ إذا رأيتُ شخصًا يُحبّ ويخدم ويبتسم ويُعطي من دون مقابل، عندها أتساءل لِمَ هو هكذا؟ مَن الّذي جعله يصبح هكذا؟ فيكون الجواب بفضل الرّبّ الّذي يؤمن به. إذًا، أنتَ تُظهر إيمانَك بأعمالك؛ فالأعمال هي الثّمرة والتّرجمة الحقيقيّة للإيمان. يتساءل البعض عن أشخاص يقومون بالعمل الصّالح على الرّغم من أنّهم غيرُ مؤمنين بالمسيح، فالجواب أنّ كلّ شيء صالح هو من صنع الآب، سواء كان هؤلاء يدركون هذا أم لا؛ فكلمة الله مزروعةٌ في كلّ الكون. ثمة أشخاصٌ يقومون بفعل الخير من دون أن يعلموا أنّ المسيح هو السّبب، لأنّه نائمٌ في ليل الأديان كلّها ومهمّتنا هي أن نوقظه في داخلها، لأنّه موجودٌ في كلّ إنسان، وليس علينا أن نأتيهم به، إنما أنْ نوقظَه في داخلهم فقط. لا نستطيع القول إذًا، إنّ ثمة شخصاً يقوم بفعل الخير لكنّه مُلحد، لأنّ فعل الخير هو من صنع الله، لكنّ الشخص نفسه يجهل ذلك. والفرق بين الملحد والإنسان الّذي يعلم أنّه يقوم بعمل الخير بفضل الله، هو شعور هذا الأخير بالفرح الدّاخلي الذي لا يوصف؛ فعلينا جعل الإنسان الذي يجهل الله يتذوّق هذا الفرح عن طريق أعمالنا الّتي تُظهر إيماننا.

يقول يعقوب الرّسول: "**أنت تؤمن بأنّ الله واحد،حسناً تَفعل، فالشياطين يؤمنون ويقشعرّون ولكن هل تريد أن تعلم أيّها الإنسان الباطل أنّ الإيمان بدون أعمال ميّت؟ ألم يتبرّر إبراهيم أبونا بالأعمال؟**أعطانا الرسولُ مثالاً عن الأعمال وهو إبراهيم حين أخذَ ابنَه إسحق وقدّمه إلى الله. فالناس يعتقدون أنّه أخذ ابنه ليذبحه ويقدّمه إلى الله، وهذه نظرة ضيّقة للغاية. إبراهيم أخذ ابنه إسحق، الّذي انتظره لأعوامٍ طويلةٍ – فالطّفل هو بمثابة الحياة بالنّسبة إلى الوالديْن؛ أراد الله أن يعرف إن كان إبراهيم مستعدّاً لأن يُقرّ ويؤمن بأنّ هذه الحياة الّتي وُهِبَ إيّاها هي من الله.

اعتاد إبراهيم أن يقدّم الذّبائح إلى الله، فذهب ليذبح ابنَه، لكنّ الله منعَه وقال له: إن كنت تعتقد بأنّك حين ستقدّم ابنك ذبيحةً ستحلّ المشكلة فأنتَ على خطأ، فالمشكلة تُحَلّ عندما أُقدِّمُ أنا ابني ذبيحة. حتى الله، لم يُظهِر محبّته للنّاس بالكلام فقط، بل بالفعل أيضًا حين قدّم ابنَه يسوع المسيح. لا يُمكنك إذاً أن تُظهر الإيمان إلّا بالأعمالِ والحياةِ والكلمةِ والمحبّةِ والعطاء. الأمّ تيريزا هي، في رأيي، قدّيسة القدّيسين في هذا العصر. كرّمها الله لأنّها تُحبّ الفقراء، وتوفيت جرّاء خدمتها للفقراء، وهي من تكلّمت على العطاء الموجع، فكلّ عطاء إن لم يوجعك ليس بعطاء. توفيت في اليوم نفسه الذي توفيت فيه الأميرة ديانا، فالنّاس انشغلوا بهذه الأخيرة ورمَوْا على قبرها ستّة ملايين وردة، ذهبوا عند الأغنياء على الرّغم من أفعالهم، ونسَوْا الأمّ تيريزا التي عاشت مع الفقراء وماتت فقيرةً، فالله كرّمها وحقّق حلمها بأن تكون حياتها كلّها مع الفقراء وختم لها حياتها منسيّة، فهي أظهرت إيمانها بأعمالها، فهل تعلمون كم من الأشخاص اعتنقوا المسيحيّة بفضل الأمّ تيريزا؟ وكم شخصًا اعتنق المسيحيّة بفضل تصرفّات بعض المسيحيّين؟ وكم من مسيحيّ ابتعد عن المسيحيّة بسبب أعمال بعض المسيحيّين؟ فبإيمانك بالرّب يسوع سيصل يسوع إلى النّاس، وأفضل طريقة ليصل بها، هي أن يكون سلوكك منسجمًا مع كلامك. لذلك، يقول: **لا تكونوا مُعلّمين كثيرين يا إخوتي، عالِمين أن نأخذ دينونةً أعظم لأنّنا في أشياء كثيرة نخرج منها، إن كان أحدٌ لا يعثُر في الكلام، فذلك رجلٌ كامل، قادر أن يُلجم كل الجسد أيضاً، هوّذا الخيل نضع اللّجام في أفواهها لكي تطاوعنا ونُدير جسمها كلّه، هوّذا السّفن أيضاً وتصبّها رياحٌ عاصفةٌ، تُديرها دفّة صغيرة، هكذا اللّسان أيضاً، هو عقله صغير ويفتخر متعظّماً، هوّذا نارٌ قليلة أي وقود تحرق، فاللّسان نارٌ، هكذا جُررَ في أعضائنا اللّسان، الّذي يدنّس الجسد كلّه، ويُضرم نار دائرة القوم، لأنّ كلّ طبع للوحوش والطّيور والزّحافات والبحريات يذلّل، أمّا اللّسان فلا يستطيع أحدٌ من النّاس أن يُذلله، هو شرّ لا يُضبط مملوءٌ سمّاً مميتاً، به نبارك الله الآب وبه نلعن في الوقت نفسه، من الفم الواحد تخرج بركةٌ ولعنة، لا يصحّ يا إخوتي أن تكون هذه الأمور هكذا، ألعلّ ينبوعًا واحدًا ينبر من نفس عينٍ واحدة العذب والمر** (يع 3: 1-13). فهل رأيتم نهرًا فيه المرّ والعذب في آن؟ إلّا فم الإنسان قد تخرج منه البركة واللّعنة. فإذا كنت مؤمنًا، والله راضٍ عنك، لا يمكن أن تتلفّظ بكلمات مُعثرة، فكيف إن كانت هذه الكلمات عن قصد؟ "من فضلة القلب يتكلّم اللّسان". إنْ كنتَ مؤمنًا، فمن المفترض أن يكون كلام الله يملأ عقلك وقلبك. فكيف يمكن أن يخرج من فمك ألفاظ معثرة، إن لم يكن قلبك يكبت في داخله قصصًا أخرى؟ هذا هو الصّراع لدى الإنسان. نلاحظ إذًا أنّنا أمام مواجهة بسيطة جدًّا؛ فلم يُطلب منا أن نصنع عجائبَ أو أن نُنزل أو أن نرفع جبالاً، ولم يُطلب منّا أن نصلح سَير الأعرج، طُلب منك فقط ألّا تكذب في حياتك، أن ترحم النّاس المحتاجين إلى رحمتك، وأن يكون كلامك منسجمًا مع إيمانك. أنتم تعلمون أنّ الله اتّخذ قرارًا بأن يسكن في الفقراء. هل تذكرون عندما قسم يسوعُ النّاسَ إلى قسمَيْن: مَن هم عن يمينه، ومَن هم عن يساره؛ وقال لهم: "كنتُ جائعًا فلم تطعموني وكنتُ عطشانًا فلم تسقوني...، فقالوا له متى رأيناك ولم نساعدك...، فقال لهم: لأنّكم لم تفعلوا بأحد إخوتي هؤلاء الصّغار فَبي لم تفعلوا. إذا لم تُطعموهم وماتوا، فأنا الذي أموت في داخلهم، وعندما تأتون للكنيسة يوم الأحد لتصلّوا لي، فستأتون لمكانٍ خالٍ من الله لأنّني متُّ في هؤلاء الفقراء، وستقدّمون ذبائحَ وصلواتٍ لكنيسة بلا إله. أنتم أصبحتم عبّاد أصنام لأنّني قرّرت أن يكون مذبحي الحقيقيّ هو المحتاج إليكم. لذلك، لا يجب أن يُعتبر يومُ الأحد نهايةَ الأسبوع لأنّ الأحد هو أوّل أيّام الأسبوع، ونحن نذهب للمشاركة في الذّبيحة الإلهيّة في اليوم الأوّل من الأسبوع لكي يكون الأسبوع كلّه على شكل القدّاس، وعندما نخرج من الكنيسة يبدأ القدّاس الأكبر. تجد أمامك مذبحًا آخر، ليس من الرّخام أو الحجر بل من اللّحم والدّمّ، وهو الإنسان المحتاج إليك كائنًا مَن يكون. هنا ذبيحتك ومُناولتك الحقيقيّة. ولذلك إذا قمتَ بالعمل الصّالح خلال الأسبوع، تأتي في الأحد الّذي يليه لتتناول جسد الرّبّ، وتختم ما قمت به خلال الأسبوع الّذي مضى. معنى "أنتم كهنوت مُلوكيّ"، أيّ أنتم أيضًا لديكم سرّ الكهنوت. وهذا يتحقّق في الطّرقات بين المحتاجين. فالله يقول إنّ دينونتك تسير على

قدميْن، هي الإنسان المحتاج؛ قد يكون مُحتاجًا إلى بسمتك أو نظرةِ حبٍّ تحتوي على تسامحٍ وحبّ وصفحٍ، أو قد يكون محتاجًا لرزقك أو لخدمةٍ منك. فلا يجب على أحدٍ أن يقول إنّه لا يجد شخصًا ليساعده؛ عند ذاك يجب عليه أن يساعدَ نفسه.

الإيمان على المحكّ، يجعلك في موقف تحدّ بينك وبين الشّخص المحتاج إليك. للملكوت بابٌ ذو مصرعَيْن، يُفتحان معًا أو يُغلقان معًا، لا أحد منهما يفتح من دون الآخر، فالمِصراع الأوّل هو يسوع المسيح والمِصراع الثّاني هو الشّخص المحتاج إليك. إيمانك يُظهر صحّة هذا الكلام. وحتى تبقى مُتيقّظًا لهذا الموضوع عليك أن تلتزم بالكنيسة والجماعة، فتصلّون معًا وتجتمعون حول كلمة الله معًا، وتستَرشدون بمُرشِدين. فيسوع المسيح ألغى الفتوة، وألغى القانون، وجعل مكانهما قانون الحرّية ألا وهو الحبّ. فلذلك، السّلوك هو من يترجّم الإيمان، لا بل أكثر من ذلك، هو الشّهادة الحقيقيّة للمسيح. فلا يجب أن تقلقوا حول فكرة التّبشير بالمسيح في محيطٍ إسلاميّ، إنّما اشهدوا له، وشهادتكم الصّادقة هي بحدّ ذاتها تُبشّر بيسوع المسيح. ليست العجائب هي المطلوب. أغلب القدّيسين مجهولون، لم يُدَلَّ عليهم بالأصابع. وأكثر النّاس الّذين صنعوا العجائب، هم أولئك الّذين صنعوا عجائب بالنّاس الآخرين المحتاجين إليهم. أي بسببك تغيّروا نحو الأفضل، وهذه بحدّ ذاتها تُعتبر أعجوبةً. فالأعجوبة هي آية تدلّ على أن المسيح، من خلالي، مرّ من هنا، وبغير ذلك تُصبح المسيحيّة فلسفةً ونظريات.

فكيف يخلص إنسان ما قد سمع عن المسيح ولم يؤمن به. نحن نريده أن يرى المسيح لا أن يسمع عنه فقط، ولن يراه إلّا من خلالك. فإذا كنتم تنتظرون المسيح أن يظهر ويسير على الأرض ليراه النّاس ويؤمنوا به، فأنتم لم تقرأوا الإنجيل أبدًا. المسيح تجسّد على صورة إنسان كي تُصبح أنتَ الإنسانُ إنسانًا.

الموضوع بسيطٌ جدًّا، ولكنّه جدير بكلّ جديّة ورصانة وعدم مساومة مع الخطيئة أبدًا، وفي الوقت نفسه، علينا أن نحبّ الخاطئ كثيرًا، لأنّه لن يرجع عن خطيئتهِ إلّا من خلال محبّتك. فالمحبّة لا تفرح بالإثم ولكنّها تَصبر على كلّ شيء؛ فصبرك على من أخطأ بحقّك يُظهر إيمانك بيسوع المسيح. صبرك عليه وليس صَفحك عنه، فالصّفح عنه هو بمكانةٍ أعلى بالتّأكيد، ولكن الصّبر كافٍ ليعكس إيماننا.

يقول الرّسول: "**يا إخوتي ليكن كلّ إنسانٍ مسرعًا في السّمع، مُبطئًا في الكلام، مُبطئًا في الغضب لأنّ غضب الإنسان لا يسمع بِرّ الله** (يع 1: 19-20)، أي أنّ الله خلق لنا أذنيْن اثنين ولسانٌ واحد، لأننا يجب أن نسمع ضِعفَ ما نتكلّم، ولكنّنا نتكلّم أكثر ممّا نسمع، لأنّنا لا نعرف الصّبر، ولذلك نغضب بسرعة. وأيّ غضبٍ، مهما كان، يشبه مخاض المرأة الحامل التي ستَلِد، ولكنّ الفرق هنا، أنّ المرأة الحامل تُنجب صبيًّا أو فتاةً، لكنّ الغضب لا يولد إلا الخطيئة. لذلك يقول في المزمور:"**وإن غضبتم فلا تُخطئوا**"، لا يقول "اغضبوا ولا تخطئوا"، فخطورة الغضب أنّه يخلق فينا روح الإدانة، أي أن نحكم على الآخر وندينَه، وخطورة الإدانة تكمن في أن تقول للرّبّ: ابتعد لأجلس مكانك. فالله قرّر أن يتنازل عن قداسته لتصبحوا قدّيسين، ويتنازل عن كماله لتكونوا كاملين، ولكنّه لم يتنازل عن حقّه بأنّه الوحيد القادر على أن يدين، ولا يحقّ لكم ذلك، لأنّ الله يعرف أنّ الإنسان لا يعرف الرّحمة. يعرف الإنسانُ معنى الرّحمة حين يُرحم، ويُحبّ حين يحبّه الآخر، وحين يأخذ، يتعلّم أن يُعطي؛ والله أعطاكم كلّ هذا. فإذا انتبهت إلى محبّة الله لك، وإلى رحمته لك، وعطاءه لك، ستعرف كيف تحِبّ وكيف ترحم وكيف تعطي. فقيامك بهذه الأشياء كافٍ لأن يوصل الإنجيل وكلمة الله إلى الجيل الآتي. لا تخافوا على مسيحيّي الشرق، حتى ولو مُتنا جميعًا، لأنّه من الحجارة يستطيع الله أن يُخرج أبناءً لابراهيم. انسوا مسألة الخوف من الأقليّة. لو أنّ الرسل الاثنيْ عشر خافوا من الأقليّة لما وصل الإنجيل إلى روما وأثينا وبلاد أخرى.

ملاحظة: دوّنتْ المحاضرة من قِبلنا بتصرّف.